الفصل الأول

تبلور الدين اليهودى

١ ـ المنفى وأثره الدينى :

نتج عن نفى كبار وعظماء اليهود فى شتى حقول الحياة من يهودا الى بابل نتائج مهمة جدا ، وأثر ذلك فى الدين العبرى ، الذى كان يدين به الأولون تأثيرا شديدا .

عندما سقطت أورشليم فى يد جيوش بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ، كانت هزيمة مملكة يهودا تامة . فقد أحرق الهيكل وتفتتت المملكة وتفرق شمل سكانها الذين نجوا من القتل . فقسم خرج الى البلاد المجاورة واندمج فى شعوبها (١) . أولئك هم الذين لم يكونوا عنصريين من قبل ، ولم يكونوا يرضون عن سلوك اخوانهم الانفرادى حيال الشعوب المجاورة ، بل كانوا فى أورشليم يطاوعون حكامها كرها ، ويترقبون الفرصة للخلاص .

وهرب قسم آخر فى اتجاه مصر . ولعلهم أرغموا على الرحيل فى اتجاه جنوبى ، خوفا من ملاقاة البابليين فى الشمال ـ وهو تفسير ضعيف بالنظر الى تفوق البابليين العسكرى ، واحاطتهم بمدينة أورشليم من جميع نواحيها ، وتمكنهم من اللحاق بالنازحين المهزومين مهما خفت خطاهم ـ أو ميلا الى صداقة مصر رغم عداوة مملكتهم الرسمية لها . وان فضلوا اللجوء الى مصر فلا بد أيضا أن سياستهم لم تكن عنصرية متعصبة كسياسة حكومة مملكتهم المهزومة . لقد استقر هؤلاء اللاجئون فى تخوم مصر ، كما نعلم من أرميا (٤٣ : ٧) أنه نفسه كان بين الذين نزلوا

---

(١) أرميا ٤٠ : ١١ ، التثنية ٢٨ : ٩٤ .

فى طفانحس (« دافنة » فيما بعد) وأن آخرين نزلوا فى مدن أخرى فى مصر الشمالية (٢) .

والقسم الذى يهمنا من هؤلاء النازحين هو قسم الذين سبوا وسيقوا اسرى الى بابل وانزلوا فى تل ابيب . ولا شك أنهم كانوا خيرة مواطنى المملكة . اذ لا يعقل أن يقوم البابليون المنتصرون بسبى السوقة والعوام بل الخاصة من الزعماء السياسيين ورجالات الدين والاقتصاد وقـــادة الجيش ، اذن ، فالمنفيون من مواطنى يهودا كانوا القادة ، أى حملة التراث والفكر وأكثر الناس تعلقا بفكر صهيون وأشـدهم تعصبا لـــه ، سواء من الوجهة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وكذلك كـــان المنفيون أشد اليهود حرصا على الكيان اليهودى وحفاظا عليه ، وأرفعهم ثقافة وأوفرهم غنى ، هذا وان البابليين لم يتدخلوا فى شئونهم ، بـــل تركوهم وشأنهم ضمن المستعمرات التى أقاموها أو خصصوها لهم . لذلك توافرت لديهم جميع المؤهلات للمحافظة على تراث مملكتهم ولاستمرار قيامهم بعاداتهم وشعائرهم . وطبيعى أنهم كانوا يرغبون فى ذلك . اذ يخفف من وطأة النفى والهزيمة التى لحقت بهم أن يظنوا أن منهاج حياتهم لم ينقطع ولم يتغير .

ومع هذا لم يحتمل العديدون منهم وطأة النفى . فلم يمض عليهم زمن طويل حتى قضت الغربة على شوقهم لوطنهم ، فانقطعت صـلاتهم بالماضى ، واخذوا يعملون فى مدن بابل وقراها كمواطنيها الأصليين . وطالما أنهم كانوا يدفعون الضرائب المترتبة على أعمالهـــم التجـارية والصناعية والزراعية لم تقف الحكومة أو الشـعب فى طريقهم . فأخذوا يثبتون أنفسهم فى المحيط الجديد ونجحوا نجاحا باهرا فى أعمالهم . ولا بد أنهم تناسوا عاداتهم وطقوسهم قليلا قليلا الى أن تم انصهار القسم الأعظم منهم فى الجسم البابلى .

---

(٢) أرميا ٤٤ : ١ تشهد الآية (اشعيا ١٩ : ١٨) وما يليها أن هؤلاء اللاجئين لم يبقوا حتى الاحتلال الفارسى لمصر فى عهد قمبيز فحسب ، بل تمكنوا من السيطرة على المرافق الاقتصادية فى مدنهم ، وتزعمـوا حركات اليهود فى العالم المعروف كله فى عهد البطالسة .

لكن هناك عددا آخر من المنفيين لم يرضوا عن بلادهم بديلا ولا لطقوسهم ودينهم تحويلا أو تغييرا . فهؤلاء لم ينسوا بل أخذوا يتوقدون شوقا لحياتهم الأولى ، ويتطلعون بأفئدتهم الى يوم عودتهم لأورشليم . وطبيعى أنهم نظروا الى دينهم وطقوسه كالمفرق الأول والأخير بينهم وبين المحيطين بهم . فلا غرابة اذن أنهم صبوا اهتمامهم عليه فأعادوا بلورته بشكل يتماشى مع واقعهم فى بابل ويضمن لهم البقاء .

ونشأ بين المنفيين فى بابل زعيم روحى اسمه حزقيال ، جاءت آثاره فى الباب المسمى باسمه فى الكتاب المقدس ، وكان حزقيال قد أعد للكهنوت ، وسبى فى الدفعة الأولى سنة ٥٩٧ ق.م . وقام بدور الكاهن زهاء عشرين سنة . كان يطيب خاطر اليهود بتفسيره الأحداث كانها من صنع الاله يهوه ، أرادها لشعبه كى يصهرهم وينقيهم ثم يعيدهم الى صهيون بعد أن أصبحوا عبادا له خلصا . فكان يقول على لسان يهوه : « سأضع فيكم قلبا وروحا جديدين ... وأجعل فيكم شرائع تتبعونها » (٣) . وشرح حزقيال فى فصول عديدة الهيكل الجديد الذى سيعيد الاسرائيليون بناءه ، وفصل الطقوس القربانية التى ظن أن لا بد لهم من القيام بها عند العودة . وكانت هذه كلها تعليلا لآمال المنفيين الضائعة . ولعله فى هذا الوقت حدث تحريف التاريخ الاسرائيلى القديم وأعيدت كتابته . فالأسفار المعروفة باسم يشوع والقضاة وصمويل والملوك ، وكذلك أسفار الأنبياء أرميا وهوشع وعاموس واشعيا وميخا وناحوم وحبقوق أعيد نظمها وتنسيقها فى هذا العهد . فجاءت مليئة بنزعة العودة والتمسك الشديد بالطقوس القربانية ونظام الكهنوت ، وكذلك أضيف الى هذه الأسفار الكثير من العظات الرادعة لشعب اسرائيل عن انضهاره فى العالم ، وعن مواطأته لطقوسها الدينية وأخلاقها ، والحاثة له على التمسك بتراثه كى لا يتفتت ويضيع . ولا شك أن نظام القداسة الذى جاءت تفاصيله فى الاصحاحات ١٧ الى ٢٦ من اللاويين ، والذى صب

---

(٣) حزقيال ٣٦ : ٢٦ ـ ٢٧ .

اهتمامه على التفريق بين الشعب المقدس وبقية الانسانية ، وضع فى هذا العهد أيضا (٤) .

وفى هذا العهد أيضا ، وتحت تأثير أوضاع النفى ، تأسست الكنيسة كنظام تعبدى وهى ما زالت الى يومنا هذا مؤسسة التعبد اليهودى الوحيدة . ذلك أن انقطاع المنفيين عن الهيكل ، اضطرهم الى التجمع فى بناء ما للتعبد يوم السبت أو على الأقل ، طالما انه لم يكن هناك تعبد بالمعنى الرسمى خارج هيكل أورشليم ، اضطرهم الى التجمع فى بناء ما للاستماع الى خطب وعظات شيوخهم ، الى كهنتهم يتلون عليهم ما نقلوه من كتبهم وأدبهم الدينى . وفى هذه التجمعات ، التى كانت عديدة اضطرارا لأن المنفيين لم يكونوا يستطيعون كلهم التجمع فى مكان واحد ، كانوا يجمعون التبرعات لاعانة المحتاجين ويوزعونها ، ويعلمون الشعب ما استطاعوا من طقوس ودروس . وعن هذه التجمعات نشأت الكنائس كمؤسسات دينية ، ثم استمرت الى ما بعد العودة وبناء الهيكل من جديد لأنها وجدت أنها تؤدى خدمة لا غنى لليهود عنها .

وفى الحقيقة ، تغير المجتمع اليهودى تحت هذه الظروف فأصبح من الوجهة الدينية مجتمعا جديدا . كان فى السابق مجتمعا يقوم حول طقس دينى واحد . ألا وهو القربان فى الهيكل الواحد الذى كان لا بديل له . أما فى المنفى ، فقد أصبح مجتمعا يقوم على التمسك بالتراث والقانون . ولا غرو أن المنفى سبب هذا الحرص الجديد على القانون .

---

(٤) يقول جون برايت فى كتابه (S.C.M. Press, A History of Israel) لندن ، ١٩٦٠ ، صفحة ٣٣٠-٣٣١ : «ان جميع الكتابات التاريخية التثنوية ، من يوشع الى الملوك الثانى ، التى ربما كانت الفت قبيل سقوط الدولة ، أعيدت كتابتها وحرفت وزيد عليها - كما فى الملوك الثانى ٢٥ : ٢٧ - ٣٠ . وجعلت منسجمة مع الوضع الجديد فى المنفى . كذلك ، آثار الأنبياء ، الآن وقد أثبتت الأحداث صحة تحاذيرها ، لم يحتفظ بها كتابة وشفاهة فحسب بل دونت من جديد وزيد فيها حواشى كثيرة جعلتها تنطبق على أوضاع المنفى ... » . ويسرد المؤلف بعد ذلك الكثير من أسفار التوراة التى اعتراها هذا التحريف المغرض .

فبما أن الدولة اليهودى سقطت والهيكل هدم والطقوس القربانية لـــم تعد تقام ، لم يبق لليهود مميز عن بقية البشر ، واستحال عليهم تعريف هويتهم بشكل فحوى . اذ لم تعرف لهم هوية ســوى الهوية الجغرافية المنطوية عنها كلمة « يهودى » أى « من بلد يهودا » . لذلك بادروا الى القانون ، وجعلوا هويتهم منوطة بتنفيذهم اياه بحذافيره . وايد هــذا الاتجاه تأويل الأنبياء والزعماء الحاليين والسابقين لذلك العهد بقليل ، من أن النكبة التى حلت بالدولة اليهودية سنة ٥٨٧ ق.م كان سببها عدم تمسك اليهود بشريعتهم . وعليه أخذ المنفيون يتسابقون فى تعليق اهتمامهم بحذافير الشريعة . فالسبت والختان مثــلا ، عرفهما اليهود من قبــل واتبعوهما كجزء من الشريعة . الا أن هذين النظامين أصبحا فى المنفى وحدهما يعرفان اليهودى ويؤديان فحوى هويته كليا . اقرأ مثلا ما جاء فى أرميا ١٧ : ١٩ ــ ٢٧ وأشعيا ٥٦ : ١ ــ ٨ ، ٥٨ : ١٣ وما يليه ، فأنت واجد أن اقامة السبت هى الفاصل الواحد والأخير بين الانتماء الى الميثاق (٥) وعدمه . واقرأ ما جاء فى التكوين ٢ : ٢ وما يليها حيث الادعاء بأن السبت شعيرة « أقيمت عند خلق الكون » . ثم اقــرأ فى الخروج ٣١ : ١٢ ــ ١٧ ، وحزقيال ٢٠ : ١٢ ، حيث الادعاء بأن اسرائيل هى اسرائيل بسبب اقامة السبت . وكذلك الختان ، فقد عرفه الكنعانيون والفينيقيون والموآبيون والمصريون وغيرهم بجانب اسرائيل باستثناء الفلسطينيين والبابليين الا أنه أصبح فى المنفى (٦) عــلامة اليهودى المميزة وفحوى يهوديته . أضف الى ذلك حزقيال ٤ : ١٢ ــ ١٥ ، ٢٢ : ٢٦ ، ٤٤ وما يليه ، ونظام القداسة فى اللاويين فصول ١٧ الى ٢٦ لتجد أن مسألة الطهارة الطقسية وأساليبها وأحكامها أخــذت أهمية كبرى فى المنفى لم تعهدها من قبل . وذلك لأن المنفيين شاءوا بهذه الوســائل

---

(٥) الانتماء الى ميثاق ابراهيم فى نظر اليهود يعنى العضوية فى الشعب اليهودى . انظر كتاب « أصول الصهيونية فى الدين اليهودى» للمؤلف ، صفحة ١٩ وما يليها .

(٦) حسب شهادة التكوين ١٧ : ١١ .

أن يعطوا أنفسهم ميزات حسية وفعلية تفوقهم عن غيرهم من البشر (٧) ٠

تجب هنا الملاحظة أن عودة اليهود الى يهودا وأعادة بنائهم الهيكل فى أورشليم سنى ٥٢٠ ــ ٥١٥ ق٠م٠ لم يغير هذا الاتجاه الدينى ، صحيح أنه لعهد قصير ، استطاع قسم ضئيل من اليهود ، وهم سكان أورشليم ، من تعريف أنفسهم على الطريقة القديمة ، أى كأعضاء مجتمع قومى طقسى ٠ الا أن معظم اليهود ــ واكثريتهم كانت تعيش خارج أورشليم بل خارج فلسطين ــ لم يكونوا يستطيعون الذهاب الى أورشليم للمساهمة فى طقوسها ولم يكونوا يرغبون فى ذلك ٠ فقد حلا لهم التعبد فى الكنيس بدون طقوس قربانية ٠ وفضلا عن ذلك ، لقد دك المنفى وسقوط الدولة اليهودية الأساس اللاهوتى للشعائر القربانية ٠ لذلك لم يكن بد من ايجاد عنصر آخر من التراث الاسرائيلى يلتف الشعب حوله ويتماسك به ٠ وذلك بالذات كان ما فعله القانون ٠

ويمكننا أن نقول ان التمسك بالقانون هو المميز الكبير بين ما قبل المنفى وما بعده فى الدين اليهودى ، أما وجود القانون نفسه فلم يكن جديدا ٠ عرفت اسرائيل القانون منذ بدايتها ، عندما كانت اتحادا قبليا قائما على القانون المترتب على الميثاق ، وعندما قامت المملكة ، لم يغير من هذا شىء ٠ ذلك لأن القانون لم يكن قانونا وصفيا من شأن الدولة ابرامه أو اسقاطه ، بل قانونا قدسيا تقوم الدولة على تنفيذه فقط ٠ ولنذكر هنا أن الملك يوشع لم يكن يقدم القانون التثنوى كقانون وضعته دولته ، بل كقانون قدسى قديم تعلن دولته خضوعها له وتمسكها به ٠

هذه المكانة الممتازة للقانون ، وتفوقه على الطقوس القربانية ،

---

(٧) من الأمور الباعثة للضحك ادعاءات رجال الدين الذين صبوا جل اهتمامهم على اعلاء شان القانون ، ففضلا عما ذكره أعلاه ، قالوا ان السبت كان يقيمه الملائكة وان اختيار اسرائيل فوق كل الشعوب أعلن عندما خلق العالم (اليوبيليات ٢ : ١٥ ــ ٣٣) ٠ وكذلك قالوا ان قانون اللاويين المتعلق بالتطهر طبق فى قضية حواء (المصدر ذاته ٣ : ٨ ــ ١٤) ٠ وان عيد الأسابيع السبع (Shavu'ot) أقامه نوح كما أقام ابراهيم عيد التوابيت (المصدر ذاته ٦ : ١٧ وما يليها و ١٦ : ٢٠ ــ ٣١) ٠

نمت بمرور الزمن في المنفى ووصلت مرحلة التبلور فى عهد عزرا . فالاصلاح العزراوى قام على القانون وضرورة التمسك به ، وكان بمثابة نهاية طريق وبداية طريق آخر فى التاريخ الاسرائيلى . ان عبقرية عزرا كلها محصورة فى هذا التعريف الجديد الذى أعطاه لاسرائيل . فاسرائيل ، فى عرفه الجديد ، لم تعد دولة قومية ، ولم تعد مجموعة أبناء مواطنى الدولة الساقطة ، ولا مجموعة سكان أورشليم ، ويهودا ، بل حتى ولا مجموعة من يعترفون بيهوه ويعبدونه . اسرائيل هى من يعترف بالقانون ويتحمل عباءه . بينما كان القانون فى السابق ينظم حياة القوم ، أصبح الآن يجعل القوم قوما . وبينما كان نتيجة للميثاق الابراهيمى ، أصبح الآن فحوى الميثاق ومعنى الدين والتدين كله ، بينما كان القانون يدعم الدين ويعطيه بعده الأخلاقى ، أصبح الآن هو الدين وهو الأصل بالمستقبل ، وأصبح اليهود لأول مرة كتابيين ، أى لهم دين هو القانون المرسوم فى كتاب . فبينما استخرج أجدادهم الكتاب المقدس . من حياتهم وواقعهم التاريخى ، أصبحوا الآن يستخرجون حياتهم وواقعهم من كتاب القانون . هذا هو الطابع الذى انطبع به الدين اليهودى وبقى حتى العصر الحديث .

صحب هذا الرفع من مكانة القانون فى الدين اليهودى تدوين معظم أسفار الكتاب المقدس ، لا سيما الأسفار الخمسة الأولى المسماة بالـ (Pentateuch) واعتبارها كتابا مقدسا . ولهذه العملية تاريخ طويل للقارىء أن يراجعه فيما نشر من أبحاث فى تاريخ نص الكتاب المقدس (٨)

---

(٨) أهمها الكتب الآتية :

H.F. Hahn, **The old Testament in Modern Research.** London : S.C.M. Press, 1956.

H.H. Rowley, ed., **The old Testament and Modern Study.** Oxford : The Clarendon Press 1951.

G.H. Wright and R.H. Fuller, **The Book of the Acts of God.** New York : Doubleday & Co., 1957.

الا أن النتيجة الملازمة لهذا الرفع كانت أن أصبح بعدها القانون مطلقا . فطالما أن القانون هو ارادة الله مجسمة فى أوامر وتعليمات ، فالقانون اذن مطلق وأبدى كالله نفسه . لا يجوز تغييره ولا تبديله . وكان من جراء هذا أن أقفل باب النبوة فى اسرائيل . اذ أن ارادة الله كلها هنا ، تقرأ وتعلم برمتها فى هذا القانون . فما الحاجة اذن الى أنبياء آخرين ؟ وما عساهم يأتون به من عند الله غير هذا الذى عندنا ؟ لذلك أصبح التطلع اليهودى لا الى نبى يأتى بالارادة الالهية كما من قبل بل الى زعماء أو شبه أنبياء ينفذون القانون (٩) .

حتى الطقس القربانى الذى كان فى العهد السابق أصل الدين وركيزته الأولى أصبح الآن لا قيمة له الا لأنه مأمور به من قبل القانون . ولم يكن القانون يصف الطقس القربانى كما كان يؤدى بالفعل ، بل كما كان يجب أن يؤدى حسب تقدير واضعى القانون ، أى حزقيال وعزرا وغيرهم ، يترتب عن هذا أن الكاهن لم يعد له تلك المكانة المهمة التى تمتع بها فى السابق . فالسلالات الكهنوتية المتمسكة بسدانتها وكهنوتها منذ أيام الملك داوود فقدت مكانتها التى تلقفها معلمو القانون وكتبته ، وبما أن قراءة القانون كانت متاحة للجميع ، لم يبق للكهنة مهنة يحتكرونها . وبعد قليل ، اضمحلت المهنة الكهنوتية وانقرض الكهنة من الدين اليهودى .

الآن وقد تركز الدين اليهودى كله فى القانون ، أصبح تاويله وشرحه وتفصيله من الأمور المهمة جدا . وبما أن القانون لم يكن وحدة

=

Max L. Margolis, **The Hebrew Scriptures in the Making.** Philadelphia. Jewish Publication, Society, 1922.

M. Noth, **Ueberlieferungsgeschichte des Pentiteuchs.** Stuttgart W. Kohlhammer, 1948.

G. Von Rad, **Das Formgeschichtiche Problem des Hexateuch. Gesammelte Studien Zum Alten Testament.** Munich : C. Kaiser Verlag, 1958.

(٩) انظر المكابيون الأول ٤ : ٤٦ ، ١٤ : ٤١ ، ٩ : ٢٧ ، ٣ : ٤٨

متناسقة الأجزاء والفروع ، وواضحة التطبيق فى جميع الحالات والمسائل ، ترتب على ذلك قيام حركة التفسير وتوريق الأحكام كى يتسنى تطبيقها على جميع مراحل الحياة . لذلك نشأت طبقة جديدة ، طبقة الكتبة ، يوقفون حياتهم على دراسة القانون وتحليله واستنباط الأحكام الفرعية منه (١٠) وابتدأ فى هذا العهد تطبيق مبدأ تفسير القانون بالقانون أو الكتاب المقدس بالكتاب المقدس كما تشهد الآيات ٤ : ٣٠ ، ٣٣ : ١٥ وما يليها ، ٥٠ : ٦ ـ ١٣ من سفر اليوبيليات فى أمر تفسير قانون السبت ، والآيات ٢ : ٢٩ ـ ٤١ من المكابيين الأول فى أمر ايقاف عمل قانون السبت فى حالات الطوارىء الملزمة للدفاع عن النفس .

تجب الملاحظة هنا أن اليهود المتدينين لم يكونوا ينظرون الى القانون كعبء ثقيل ، على عكس اليهود غير المتدينين ، الذين كانوا يتبرمون ويتأذون من تبعاته . لذلك تركزت دعاية رجال الدين على اقناع اليهود بأن طاعة القانون حلوة ومفرحة ومحببة . اقرأ مثلا الآيات ١ ـ : ٢ ، ١٩ : ٧ ـ ١٤ ، ١١٩ : ١٤ ـ ١٦ من سفر الزبور والآيات ١ : ١١ وما يليها من سفر (Ecclesiasticus) وادعوا أن فى القانون حياة ونورا وهدى كما فى الآية ١١٩ : ١٠٥ من الزبور ، وأن من يتبعه لا بد أنه واجد أمنا وراحة وسعادة ، كما فى الزبور ١٤٧ : ١٩ وما يليها ، ومع أن القانون أشار فى أماكن عديدة الى النية الصافية وخشية الاله يهوه ، الا أنه مقطوع منه أن التقوى اليهودية لم تكن فى يوم من الأيام تعنى تقوى ضميرية صحيحة ، بل انحصر معناها كليا فى طاعة القانون وتطبيق جميع حذافيره . فالدين كله ، فى عرف الزبور ١ ، ١٩ : ٧ ـ ١٤ ، ١١٩ ، (Ecclesiasticus) ٢ : ١٦ ، ٣٩ : ١ ـ ١١ هو محبة القانون وتطبيقه (١١) .

---

(١٠) كان بن سيرا أحد هؤلاء الكتبة ، انظر : (Ecclesiasticus) ٣٨ : ٢٤ ـ ٣٤ ، ٥١ : ٢٣ ، بركى آبوت ١ : ١ .

(١١) انظر أيضا الى تعريف يهوديت بأنها متدينة وذات قداسة لأنها تقيم الأعياد وتصوم وتقيم السبت وتطبق الأحكام المتعلقة بالأكل (يهوديت ١١ : ١٧) .

بقيت لنا ملاحظتـان عن تطـور الدين اليهودى فى عصرى المنفى وما بعده ٠

الأولى : أن اليهود تبنوا نظرية الملائكـة والشـياطين السائدة فى الدين الفارسى وذلك لأن تاريخهـم (أى هزيمتهـم وتحطيم دولتهـم وتشريدهم) أدت بهم الى الاعتقاد بأن يهوه لم يعد دائم الوجود بينهم ، لم يعد يرافقهم فى شتى الأحوال والأوقات والديار ٠ فنتج عن هذا الأقصاء للاله ، أنه أصبح بعيدا ثم منزها عن الاتصال المباشر بشعبه المختار ٠ فجاءت الملائكة تقوم بهذا الاتصال وتعمل كوسيط بين الاله وشـعبه المحبب (١٢) ٠

أما الملاحظة الثانية : فهى نشأة الوعى الأخروى عند اليهود ٠ فهم لم يكونوا حتى المنفى يعتقدون بأية آخرة ويرون أن الموت خاتمة كـل شىء ٠ أما وقد شاهدوا تحطيم مملكتهم وتقتيل رجالاتهم ، متقين كانوا أو اشرارا ، على يد البابليين ثم اليونانيين ثم الرومانيين ثم الأنطاكيين ، أخذوا يتقبلون الفكرة الأخروية الفارسية ٠ اذ لم يعد يعقل عندهم أن الاله لن ينصر شعبه المختار بعد سقوطه ، وعبادة الأتقياء بعد موتهم ٠ ومن هنا بدأ الايمان بالبعث وبيوم الدين ـ أى يوم المحاكمة والانتصـار للشعب المختار ـ ينمو حتى عم الجميع ٠ ولم يتقبل الصدوقيون الفكرة الجديدة واعتبروها بدعة حتى عهد المسيح ٠ وأود أن أشير هنا الى ما ذكرته فى هذا الصدد فى كتابى « أصول الصهيونية فى الدين اليهودى » مضيفا أن وعى اليهود الآخرون تبلور منذ عهد المنفى فى خطين عريضين : خط يرى الآخرة كعودة الى أورشليم الجغرافية واقامة المملكة الداوودية السياسية فيها على يد مخلص يلم شتات اليهود العنصرى (وهـذه هى الصهيونية) ، وخط آخر يرى الآخرة كبعث شخص ومحاكمة شـخصية

---

(١٢) انظر فى هذا الصدد جميع أبحاث (George Widengren, R.C. Zaehner) كذلك بحث تلميذ الأخير (H. Ringren) المسمى (Word and Wisdom) Lund : Hakan Ohlssons Bock Tryckeri, 1947.

عن الأعمال فى الدنيا ثم الاحالة الى ملكوت الله . فالخطان اذن خط مادى عنصرى جغرافى شعبى ، وخط روحانى شخصى دينى بالمعنى الذى فهمه الأبيونيون والأسينيون وأخذه السيد المسيح عنهم فيما بعد .

***

٢ ـ نشأة التلمود واتمامه :

يتألف التلمود من مجلدات عديدة ضخمة ، مضت سنون طويلة ، حوالى ألف سنة ، فى تأليفها وجمعها وتنقيحها . تتحدث هذه المجلدات عن كل شىء : من أهم المبادىء الميتافيزقية والدينية الكبرى الى أدق وأتفه مراسم الزراعة والطبخ والزينة . والتلمود يعكس لنا التفكير والواقع اليهودى عبر القرون العشرة التى نشأ وتم تأليفه فيها .

لا بد أن التراث الشفهى قديم ، وربما كان أقدم حتى من القانون الموسوى . وكان التحام التراثين الانسانى والالهى تاما طالما أن الأخير لم يكن مدونا فى كتاب . أما وقد دون فى عصر عزرا ، ابتدأ الخطان ينفصلان عن بعضهما بعضا . فمنذ عزرا قدس اليهود توراتهم ودونوها ، وهكذا حافظوا عليها ، أما التراث الانسانى ، فقد استمر ينقل شفهيا من جيل الى جيل . ومر بنا أن رفع القانون ـ أى التوراة ـ الى مكانة تساوى فيها بالدين كله ، ألزم الكتبة الى شرحه وتفصيله واستنباط الأحكام الفرعية منه . فعملية الشرح والتفسير والاستنباط اذا اتصلت بالتراث الشفهى والتحمت معه ، وتمنع الكتبة عن تدوين شروحهم حتى لا يختلط التراث الانسانى بالتراث الذى اعتقدوه الهيا . ونشأ بينهم أصحاب الذاكرة الخارقة الذين كانوا يحفظون أسفارا طويلة غيبا .

وأول من حفظ لنا التاريخ ذكرهم من رجال من هذا النوع ، شماى وهيلل ، اللذين عاشا قبل مولد المسيح بعشرين أو ثلاثين سنة ، وعرف عن الأول أنه كان شديد الحرص على حذافير القانون ، بينما اشتهر الثانى بليبرالية وروح سمحة . ولعلهما يمثلان النزعتين المادية والروحانية التى أشرت اليهما أعلاه . والمعروف أيضا هو أن تابعى

الأخير كانوا قلة تفوق عليهم أتباع شماى تفوقا كبيرا ، ولم يصلنا شىء مما حفظوه وقالوه الا بواسطة الأجيال اللاحقة .

وعندما حطم الرومان الهيكل والكيان اليهودى سنة ٧٠ للميلاد قام يوحنان بن زكاى أحد أتباع هيلل بتأسيس مدرسة فى يبنا بعد أن هرب من أورشليم المهدومة . هناك ابتدأ يوحنان يعلم تلاميذه ما حفظه من تراث ، ايمانا منه بأن اسرائيل لن تقوم الا بقانونها وتراثها الدينى . ويشهد لنا مدى تشاؤمه من قيام اسرائيل السياسية ما نسب اليه من قول بأن أعظم جندى لاسرائيل ليس المحارب بل التلميذ الذى يدرس ويكرس أكبر الجهد والوقت لحفظ القانون وتعليم تلامذة آخرين . وقد أضفى يوحنان على مجلسه فى يبنا ، الذى أسماه « بيت الدين » ، مكانة الافتاء والحكم التى كان يتمتع بها مجلس السنحدرين فى أورشليم . اذ لم يعد هناك مجلس لهم بعد سقوط الدولة . واستمرت مدرسة يبنا هذه تتمتع بمكناتها مدة ستين عاما أنجزت خلالها جمع الكتاب المقدس . مضيفة اليه أنشودة الأناشيد وسفر (Ecc'esiases) ومقصية عنه سفر بن سيرا . كما أنها أقنعت اليهود بأن هذا النص هو النص الكامل للكتاب المقدس وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان بعد اليوم .

وفى عهد الامبراطور هادريان ، برز بين دارسى القانون الربان عقيبا وكانت ميزته قوة ادراكه ، وسرعة استنباطه للأحكام من النصوص ، فتزعم مدرسة يبنا وقام باركوخيا بثورته فى ذلك العهد ضد الحكم الرومانى فانضم عقيبا اليه وأخذ يطنطن له بأنه المخلص المنتظر « والنجم الخارج من يعقوب » . وباقتلاع الثورة ! سقط عقيبا بيد الرومان وأعدم تمزيقا على مرأى العموم . وعليه ، صب الرومان غضبهم على يبنا ومدرستها ، بل وتعدوا ذلك الى الدين اليهودى نفسه . فحرموا الختان ، واقامة السبت والأعياد وأى طقس من الطقوس ، وكذلك أبرموا قانونا يعد بموجبه كل من درس القانون مجرما يستحق عقوبة الموت .

تبعثر على الأثر ما كان فى يبنا من مخطوطات وآثار . واختبأ من استطاع النجاة من الربابنة وتلاميذهم فى قرية « آوشا » قرب مدينة

حيفا محتفظين بما استطاعوا تخليصه من آثار الى أن ألغى الامبراطور أنطونينوس بيوس سنة ١٣٨ الاضطهاد الذى أنزله سلفه باليهود • وعليه انتقلت العاصمة الدينية من يبنا الى شمال فلسطين • وهناك تزعـــم الحركة الربان ماييير وتمتع بمكانة جعلت ربابنة القرن الثالث يقولون : « عندما لا يذكر اسم العالم بالذات فى أى فصل من فصول المشنا ، يجب أن يفهم أو واضعها هو الربان ماييير » • وأخيرا ، قام الربان يهـودا ، من تلامذة الربان ماييير ، زعيما لمدرسة القانون شمال فلسطين ، بين صفد وطبريا • وهناك ، تحت اشرافه حوالى سنة ٢٢٠ للميلاد ، جمعت آراء ومحفوظات مئة وثمانية وأربعين (Tannaim) أو معلمين فى ستة فصول سميت ونسقت كما يلى :

(١) **البذور** ، وفيه قوانين الزراعة والصلاة وحقوق الفقراء •
(٢) **الأعياد** ، وفيه قوانين السبت والأعياد وطقوسها •
(٣) **النساء** ، وفيه قوانين الزواج والطلاق والنذور •
(٤) **الاضرار** ، وفيه القوانين المدنية والاجرامية •
(٥) **المقدسات** ، وفيه مراسيم القربان وطقوس الهيكل •
(٦) **التطهرات** ، وفيه الطقوس اللاوية وقوانين الطهارة •

الا أن عملية التدوين الخطى لم تتم وبقيت المشنا تنقل من جيل لجيل حفظا عن ظهر قلب حتى سنة ٣٩٠ للميلاد ، فقد تم تدوينها ومنذ ذلك الوقت وهى تعرف بالتلمود الفلسطينى •

ونشأ فى بابل ربانان ، صموئيل وأبو عريقا المعروف بسراب ، نزعا الزعامة الدينية لنفسيهما ، أو بالأحرى ، لبابل ، من فلسطين • وكان هذان الربانان أشد ذكاء ودهاء من معاصريهما فى فلسطين ، ومع أنهم ركزوا أعمالهم على المشنا الفلسطينية كاساس ، زادوا ونقحوا وغيروا الكثير ليجعلوها متجانسة مع روح العصر • وأفتى الربان صموئيل لأول مرة فى تاريخ التشرد اليهودى أن قوانين دولة المهجر قائمة وقاطعة فى كل ما يتعلق بحياة سكانها اليهود ما عدا الطقوس الدينية •

ومنذ أن وضعت المشنا ، والتعليقات والتفسيرات والاستنباطات منها وحولها وعليها تتضخم وتزداد مما أصبح يؤدى الى تشابك المواد مع بعضها بعضا بشكل يصعب حله . لذلك قام ربينا الثانى ، رئيس مدرسة سورا ببابل سنى ٤٧٤ – ٤٩٩ ، وذلك فى عهد يزدجرد الثانى ، بجمع وتصنيف وتدوين هذه التفسيرات الاضافية ، والتى يطلق عليها اسم جمارا (Gemera) ولم يفرغ من عملية التدوين هذه الا فى أوائل القرن السادس للميلاد . فالتلمود البابلى يتألف اذن من المشنا والجمارا ، أو التفسيرات المجموعة فى عهد رابينا الثانى .

وتقسم مواد التلمود أيضا ، سواء الفلسطينى أو البابلى ، الى حلقا وهجادا ، ويعنى بالأولى المواد المنظمة للحياة اليهودية ، علمانية كانت ام دينية ، شخصية أم مجتمعية . ويعنى بالثانية المواد القصصية والتاريخية والأدبية التى جاءت مفسرة أو ممثلة أو مجسمة لأحكام الحلقا .

* * *